
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

الأضرحة ومكانتها في الفترة العثمانيّة بالجزائر
–دراسة أنتربولوجيّة–

The shrines and their role in the Ottoman period in Algeria
-Anthropological study-

د. حاج بنيرد
Hadj BENAIRED
جامعة مولود معمري، الجزائر
البريد الإلكتروني: hbennaired@gmail.com

– **الملخّص:** لقد تزايد عدد الأضرحة في الغرب الإسلاميّ بشكل مطّرد بعد القرن العاشر الهجريّ، وما سبقه من سيطرة الزّوايا والتّكايا على المؤسّسة الدّينيّة والمشهد الثّقافي والاجتماعيّ والسّياسي، والّذي صادف بدوره قيام الإمبراطوريّة العثمانيّة، وهي أيضا استمدّت قوّتها ونفوذها من عوامل سيطرة التّصوّف العمليّ والفولكلوريّ والطّرقيّ على العالم الإسلاميّ، ممثّلا عندهم في الطّريقة البكتاشيّة، ودراويشها الّذين شكّلوا نواة الجيش الانكشاري؛ القوّة الضّاربة في اتّساع نفوذ العثمانيّين، وهذا البحث يركّز على دراسة انتشار الأضرحة في الجزائر بشكل خاصّ، وعوامل ذلك وفق طرح ومنهج تاريخيّ وأنتروبولوجيّ، مع التّركيز على مساهمة العثمانيّين في استثمار سيطرة التّصوّف الطّرقي على المجتمع، وتشجيع الدّولة لذلك ومساهمتها فيه، إثر سقوط الأندلس وما صحبه من سقوط مركزيّة السّلطان على حساب تزايد نفوذ الأولياء والصّلحاء، وبالتّالي انتقال البَيْعة من الحاكم السّياسي إلى الحاكم الرّوحي؛ وهو الوليّ الصّالح، وأيضا تعاظم الخطر الأجنبيّ وما رافقه من تضاؤل سلطة العصبيّة القبليّة على حساب تعاظم سلطة الطّرق الصّوفيّة؛ وهو ما أسّس لفكرة الوسيط في العقل الجمعيّ، وبالتّالي تقديس الأولياء، وما يترتّب عليه من طقوس وزيارات وبَيْعات وأخذ للعهود والمواثيق منهم، وما يتبعه من بناء الأضرحة والقباب والمقامات وممارسات طقوسيّة متراكمة من فترات متعاقبة وديانات وثقافات مختلفة؛ تؤشّر على التّديّن الشّعبيّ في المجتمع الجزائريّ.

– **الكلمات المفاتيح:** الضّريح، العثمانيّون، الجزائر، الطّقوس، الصّلحاء.

– **Abstract:** The number of shrines in the Islamic West increased steadily after the tenth century AH, and the preceding control of angles and tacitas over the religious establishment and the cultural, social, and political scene, which in turn coincided with the establishment of the Ottoman Empire, and it also derived its power and influence from the factors of Tasfoul and practical education. On the Islamic world, represented by them in the Bactic method, and its Derouche who formed the nucleus of the Janissary army; the force striking in the expansion of the Ottomans influence, and this research focuses on studying the spread of shrines in Algeria in particular, and And I hope that according to a historical and anthropological approach and approach, with a focus on the Ottomans contribution to investing the dominance of the mysticism on society, and

encouraging the state to do so and its contribution to it, following the fall of Andalusia and the accompanying fall of the sultanate at the expense of the increasing influence of the Awliya and the Sulayhid, and thus the transfer of the pledge of allegiance from the political ruler to The spiritual ruler, who is the righteous guardian, and also the growing foreign threat and the accompanying erosion of the authority of tribal nervousness at the expense of the growing authority of the mystical methods. Skills and taking the Sales of covenants and charters of them, and the subsequent construction of shrines and domes and shrines and practices of ritual accumulated from successive periods and different religions and cultures; indicate the popular religiosity in the Algerian society.

- **Key words:** the shrine, the Ottomans, Algeria, rituals, the righteous.

- **المقدّمة:** لقد انتشرت الطّرق الصّوفيّة في العالم الإسلاميّ عقب سقوط بغداد سنة 656هـ/1258م على يد التّتار، وازداد تأثيرها وتعاظم نفوذها في القرون الموالية، وخاصّة في الغرب الإسلاميّ بعد سقوط الأندلس سنة 892هـ/1492م، وساهم كثير منها في تشكيل الدّول والحياة السّياسيّة، وصادف ذلك نشوء دولة العثمانيّين الأتراك، والّتي قامت على أساس التّحالف بين آل عثمان والدّراويش بمباركة الحاج بكتاش باشا مؤسّس الطّريقة البكتاشيّة؛ والّتي كانت تكاياها وزواياها قلاعاً لتكوين جيش الإنكشاريّة، بحيث كان دراويش الطّريقة البكتاشيّة نواة هذا الجيش، وكثير من أفراده هم من الغرباء والذّمّيّين واليتامى، وساعدت تعاليم البكتاشيّة في صلابته، والّتي تمتاز بالصّرامة في المأكل والملبس وتقاليد العزوبيّة، وتمتاز أيضا بالمرونة كونها مزيج من المعتقدات الدّينيّة والمذهبيّة من مختلف الدّيانات والفلسفات والمذاهب، وحتّى الشّعبويّة والإثنيّة المختلفة، وتمكّنت من خلالها احتواء مختلف المذاهب والدّيانات، وهذا العناصر الثّقافيّة المرنة هي أساس قوّة العثمانيّين وسرّ انتشار نفوذهم في المشرق والمغرب والبلقان وأواسط أوربا، وعملوا على بناء الزّوايا والتّكايا باعتبارها أماكن للعبادة والرّعاية الاجتماعيّة، والسّلطة الموازية والمتحالفة مع الباب العالي في إسطنبول، حتّى صارت مصدر قلق للسّلطان كما كانت مصدر قوّة له، وخصوصا مع انتشارها في مختلف البلدان واتّساع أملاكها وإقطاعياتها وكثرة أتباعها، وفيها كانت منابع الكرامات والأساطير وقداسة الأشخاص والأماكن، وبالتّالي نشوء طقوس الزّيارات والقرابين والبحث عن البديل والملجإ في أزمان الشّدّة والاضطرابات، أو لنقل البحث عن الوسيلة الّتي يُدفع بها الضّرر ويُجلب بها المأمول، وهو ما أسّس لعقيدة الوسيط أو تطوّر فكرة الشّفيع، فيما يحيل إلى تقديس الأشخاص l'anthropolâtrie، والّتي تحوّلت مع مرور الوقت بموت أصحابها إلى بناء الأضرحة والقباب والمشاهد، بحيث صار الضّريح le mausolée مركز المشهد الثّقافي والسّياسي في الغرب الإسلاميّ وغيره، باعتبارها الفترة الّتي أرست معالم مركزيّة الشّيخ والزّاوية والضّريح على حساب السّلطان والدّولة والقبيلة.

- فما هو دور كلّ من الزّوايا ومن خلالها السّلطة العثمانيّة في انتشار الأضرحة؟ وما دورها في الحياة السّياسيّة والاجتماعيّة؟ وما دور الاضطرابات الاجتماعيّة والإثنيّة والسّياسيّة في إعادة صياغة بوصلة

المجتمع نحو المؤسّسة الدّينيّة النّاشئة والمتمثّلة في الزّوايا؟ وما تأثير الخوف من الدّخيل والغزو الأجنبيّ وخصوصا الإسباني في انتشارها بكثرة في الجزائر؟

– يحاول هذا البحث مقاربة موضوع الضّريح في الجزائر خلال الفترة العثمانيّة وفق طرح أنتروبولوجي بالبحث في انتشار القباب والأضرحة والممارسات الطّقوسيّة عندها من خلال تقديس الشّخص والمكان، وربطها بالبنية الاجتماعيّة وبالبيئة الثّقافيّة والتّاريخيّة والسّياسيّة خلال مرحلة حسّاسة من التّواجد العثماني والصّراع في حوض المتوسّط.

1- العناية بتراجم الصّلحاء: كان دأب أصحاب التّراجم والأعيان في القرون الأولى العناية بأسانيد التّلقّي والرّواية، وبعدد العلوم والفنون والكتب والمقروءات والسّماعات والفتيا والقضاء ونحوها، ولكن بعد القرن السّادس صارت عناية أصحاب التّراجم تتوجّه أكثر إلى تَعْداد الكرامات والخوارق والخاملين وحتّى المكاشافات من الأمّيّين الّذين لا يقرؤون ولا يكتبون، فتغيّرت معايير نقد الرّجال من سعة العلم والرّواية إلى كثرة الكرامات والخوارق الّتي ارتبطت أحيانا بالخرافات والأساطير، وبالتّالي نفهم التّغيّرات الفكريّة والذّهنيّة والاجتماعيّة الّتي طرأت على العالم الإسلامي شرقا وغربا، وأتاحت الفرصة لتقديس المشايخ في حيواتهم ثمّ بعد مماتهم.

ونجد بعض الكتب اختصّت في تراجم الأولياء وتَعداد مناقبهم وكراماتهم؛ وارتبطت غالبا بالفترة العثمانيّة، مثل ابن القنفذ القسنطينيّ الّذي جعل معظم كتابه (أنس الفقير وعزّ الحقير) في ترجمة أبي مدين الغوث وبعض أصحابه، وابن صعد التّلمساني (901هـ) بكتاب: (النّجم الثّاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب)، واختصره بـ: (روضة النّسرين في مناقب الأربعة المتأخّرين)؛ وهم: محمّد الهواري، وإبراهيم التّازي، والحسن أبركان، وأحمد الغماري، ووضع أبو حامد المشرفي كتابا في ترجمة سيدي محمّد بن علي آبهلول المجّاجي؛ سمّاه: (ياقوتة النّسب الوهّاجة)، ووضع الشّيخ محمّد الصّبّاغ القلعيّ ترجمة لشيخه سيدي أحمد بن يوسف الملياني (ت931هـ) سمّاه: (بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار سيدي أحمد بن يوسف الرّاشديّ النّسب والدّار)، وقد أُعتني بهذا الكتاب واختصر وذُيّل مرارا، ومن ذلك رسالة: (عقد الجمان في تكملة البستان) للشّيخ محمّد بن الهاشميّ، وكتاب (ربح التّجارة) للشّيخ عليّ بن موسى الجزائريّ (ت1913م)، وألّف ابن مريم المديوني بكتاب: (البُستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان)، واختصّ محمّد بن عمر الملالي بترجمة شيخه محمّد بن يوسف السّنوسيّ بكتاب: (المواهب القدسيّة في المناقب السّنوسيّة)، وجعل بابا منه في مكاشفات السّنوسيّ وكراماته[1]. ونشير إلى أنّ الكثير من هؤلاء الصّلحاء الّذين بُنيت لهم أضرحة منهم المجهول والمجنون والجاهل الأمّيّ، والغريب أيضا قد يعتنى به ويقدّس، وحتّى من اليهود والنّصارى، يذكر إدمون دوتي عددا منهم، مثل الدّوق ريبردا المغامر الهولندي،

[1] – انظر: سعد الله، **تاريخ الجزائر الثّقافي**، مرجع سابق، ج1 ص76.

والوزير الإسباني الّذي تقدّم لخدمة سلطان المغرب واعتنق الإسلام، وأصبح مقدّسا تحت اسم سيدي عثمان[1].

2- الطّرق الصّوفيّة وبناء القِباب والأضرحة: ارتبط انتشار الأضرحة في الجزائر وفي غيرها بانتشار واتّساع الطّرق الصّوفيّة وامتداد نفوذها في القرن العاشر الهجري وما بعده؛ سواء على مستوى العامّة أم مستوى الخاصّة من العلماء والأمراء والأثرياء، فقلّما يخلو حيّ من الأحياء من وجود ضريح أو قبّة، وبدأت في أوّل الأمر بعزلة الصّلحاء للنّاس وخلوتهم، وللفراغ الرّوحي والعلمي قصدهم النّاس، فإذا اشتهر أحدهم بينهم بُني له رباط يستقبل فيه الزّوّار والغرباء والطّلبة، ويتبرّع له النّاس عند زيارتهم بنفائس أموالهم، فنشأت بالتّالي عادةٌ تسمّيها العامّة (الزّيارة)، فيتطوّر هذا الرّباط، ويصير مؤسّسه (المرابط) عَلَماً على المكان، ويصبح يسمّى به فيُقال رباط أو زاوية سيدي عبد الرّحمن وسيدي بومدين وسيدي امحمّد وغيرها، فإذا مات المرابط دُفِن بذلك الرّباط وبُنيت عليه قبّة، فيصير الضّريح علَما للمكان، ويرث خلفاؤه من بعده السّرّ والبركة، وتزداد قداسة الضّريح بين أهل النّاحية وتنتشر سمعتها ونفوذها إلى نواحٍ أخرى بعيدة وهكذا، وصارت كلّ مدينة أو قرية محروسة أو تحت نفوذ وليّ من الأولياء متمثّلا في ضريحه[2]، وعظمت هذه الظّاهرة فوجدنا ابن مريم المديوني في القرن الحادي عشر الهجريّ يجمع ديوانا في ذكر أولياء تلمسان وكراماتهم سمّاه: (البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان)، ونظم محمّد ابن الموفّق المعروف بابن حوّاء (سبيكة العقيان فيمن في مستغانم وأحوازها من الأعيان) عن صلحاء الشّلف وفيهم أيضا (صلحاء الشّلف) للشّيخ موسى المازوني، وفيهم أيضا أرجوزة (الفلك الكواكبي) لأبي عبد الله ابن المغوفل (ت1023هـ)؛ يقول في أوّلها[3]: [الرّجز]

وَبَعْدُ فَالْقَصْدُ بِهَذَا اَلرَّجَزِ   تَقْرِيبُ مَا نَأَى بِلَفْظٍ مُوجَزِ
سَمَّيْتُهُ بِـ (الْفَلَكِ اَلْكَوَاكِبِي)   وَسُلَّمِ اَلرَّاقِي إِلَى اَلْمَرَاتِبِ
أَعْنِي مَرَاتِبَ اَلسُّلُوكِ لِلْمُرِيدِ   فِي الِابْتِدَا وَالِانْتِهَاءِ لِلْمَزِيدِ

وقد جمع فيها ابن المغوفل أخبار أولياء الشّلف من عدّة قرون من القرن السّادس الهجريّ إلى القرن التّاسع الهجريّ، وكتب محمّد الجوزي عن أشراف غريس، والبوني بألفيّته (الدّرّ المصونة في صلحاء بونة) أي عنّابة، وامتلأت الرّحلات بذكر بعضهم كرحلة الورتيلاني.

وقد فرّق المستشرق ديفوكس بين زوايا الأرياف وزوايا المدن، فقال إنّ الأولى مبنيّة حول قبرٍ لمُرابط، ويوجد القبر في قرية تسكنها إحدى القبائل، وفيها أحفاد المرابط، وقال إنّ هذا التّجمّع يطلق عليه اسم زاوية، ومن احتمى بها أو بأحفاده فهو آمن ولا يُتابع، بينما في المدينة فهي تشمل ذلك ويُضاف لها أنّها

1 – انظر: دوتي، إدمون، **الصلحاء**، ص90.

2 – انظر: سعد الله، مرجع سابق، ج1 ص262 وما بعدها.

3 – انظر: سعد الله، مرجع سابق، ج2 ص117.

بناية كبيرة ويأوي إليها الفقراء والغرباء وتتوفّر على ضرورات الحياة، وقد تصير مدرسة عليا لتدريس العلوم التّقليديّة من فقه وتفسير وحديث وعربيّة ومنطق ونحوها[1].

3- السّلطة العثمانيّة وبناء القباب الأضرحة: يعتقد المستشرق لوسيان غولفان Lucien GOLVIN أنّ بناء القباب أو القبّة على المساجد كان تقليدا للمسجد الأقصى، والّذي تأثّر بفنّ العمارة البيزنطيّة، ثمّ تلاه المسجد الأمويّ بدمشق، ثمّ صار بناء القباب على المساجد تقليدا جرى عليه الفنّ المعماريّ الإسلاميّ في بناء المساجد وغيرها، وأنّ أوّل قبّة بُنيت في الفضاء المغاربي –حسب غولفان– كانت لمسجد القيروان بتونس في القرن التّاسع الميلادي[2]، والجدير بالذّكر أنّه قد شهدت هذه المرحلة بناء القباب بشكل واسع، وصار من لوازم الحياة العامّة والثّقافة الشّعبيّة، فما من مدينة أو قرية إلّا وفيها الكثير من الزّوايا والقباب والأضرحة، فقد ذكر سعد الله في (تاريخه الثّقافي) الكثير من القباب في الجزائر منها مثلا خمس وثلاثون قبّة معروفة وهناك قباب أخرى كثيرة مسكوت عنها، اعتمادا على التّقارير الفرنسيّين كأوميرا وديفوكس، ومعظمها إن لم نقل كلّها كان بناؤها خلال الفترة العثمانيّة، فقد اهتمّوا كثيرا ببناء الأضرحة والقباب والمشاهد ووضع الأوقاف والعُمّال عليها، وممّا يذكر على سبيل المثال أنّ الباي حسين قد أوقف سنة 1173هـ وقفا على زاوية مولاي الطّيّب الوازاني في تلمسان حين اشترى لها دارا بستّين مثقالا من الذّهب، وفي سنة 1174هـ بنى الباي إبراهيم الملياني بأمر من باشا الجزائر ضريحا للولي محمّد بن علي بن الولي عبد الله بن منصور، كما أنّ الباي مصطفى المانزلي قد جدّد سنة 1218هـ ضريح الولي عبد الله بن منصور[3]، بل إنّ بعض الباشاوات جُعلت لهم أضرحة وقباب منها قبّة الحاج باشا جهة باب الواد، كان حاكما محبوبا حسب بعض المصادر، وكان حاكما سنة 1843م أي بعد حملة شارلكان على الجزائر سنة 1841م[4]، ويُقال أنّ حيّ القبّة المعروف بالعاصمة يُنسب إليه، ومنها أنّ أحد الدّايات بنى قبّة لطبيب كان يُعالجه فسمّيت قبّة المرابط الطّبيب، ومنها تجديد الزّوايا وترميمها، فقد تمّ تجديد زاوية سيدي عبد القادر بالعاصمة سنة 1808م على يد الدّاي أحمد باشا.

4- البكتاشيّة والانكشاريّة: لعب جيش الانكشاريّة دورا فعّالا في تأسيس الدّولة العثمانيّة واتّساع نفوذها شرقا وغربا، وارتبط تأسيس الانكشاريّة بالطّريقة الصّوفيّة البكتاشيّة ذات النّزوع الشّيعي والمشارب المختلفة، وتذكر الرّواية أنّ السّلطان أورخان الأوّل بن السّلطان عثمان الأوّل مؤسّس الدّولة العثمانيّة، ذهب إلى الحاج بكتاش مؤسّس الطّريقة مع نفر من جيشه، فوضع الحاج بكتاش جزءا من ردائه على رأس جنديّ، وأعطاهم علما أحمر يتوسّطه هلال وسيف ذي الفقار المنسوب للإمام عليّ، ليبدأ الارتباط

---

1 - انظر: ديفوكس، ألبير، المؤسّسات الدّينيّة في مدينة الجزائر، الجزائر، 1878م، المقدّمة.

2 - GOLVIN, Lucien, la mosquée (ses origines, sa morphologie, ses diverses fonctions, son rôle dans la vie musulmane, plus spécialement en Afrique du Nord), Alger-livres éditions, Alger, 2013, p87, 88.

3 - انظر: سعد الله، مرجع سابق، ج1 ص265.

4 - انظر: المرجع نفسه، ج5ص127.

الوثيق بين الجانبين، واتّخذ الانكشاريّة بكتاش رمزا وشفيعا، وأطلقوا على أنفسهم اسم أولاد الحاج بكتاش، وجرى تشكيل البكتاشيّة في صورتها النّهائيّة على يد بالم سلطان الّذي عيّنه السّلطان بايزيد الثّاني رئيسا لزاوية الحاج بكتاش، وعهد إليه لإقامة زاويا للطّريقة في القرى والمدن العثمانيّة، وصارت البكتاشيّة تشكّل الإطار الإيديولوجي للدّولة العثمانيّة، ولا سيّما المظهر العسكريّ الّذي يشكّل العمود الفقريّ للفتوحات والتّوسّع الإقليمي، وهذا لا يعني أنّها كانت على وفاق تامّ مع السّلطة العثمانيّة، ولكنّها كانت عنصرا حاسما فيها سلبا أو إيجابا، فقد وقف أتباعها البدو الرّحّل التّركمان القزلباش (أصحاب الطّرابيش الحمراء) مع الدّولة الصّفويّة الشّيعيّة أثناء صراعهم مع العثمانيّين، كما كانوا هدفا للحملات العثمانيّة سبقت حربهم ضدّ الصّفويّين، وتحديدا في عهد السّلطان سليم الأوّل (1512م–1520م)[1]. كما ارتبط المؤسّس الحاج بكتاش في ذهن العامّة بالعقائد المسيحيّة وجعلته كراماته وخوارقه في مرتبة القدّيس عندهم، فيما تذهب بعض الدّراسات إلى أنّ الطّريقة البكتاشيّة تستمدّ من العقائد الصّفويّة ومن عقائد قديمة في الأناضول[2]، وقد ساعد مرونة عقائدها واستيعابها لشتّى الدّيانات والمذاهب إلى الانتشار السّريع عبر أقطار الإمبراطوريّة العثمانيّة، والحقيقة أنّ تبنّي الباب العالي لها هو العامل الأساس في انتشارها مع انتشار الجيش الانكشاريّ، فقد استهلّ السّلطان سليمان القانوني عهده بافتتاح عشرات الزّوايا ومنحها الكثير من الإقطاعات، وتأثيرها المباشر في السّياسة العثمانيّة، وكان من عادة السّلاطين العثمانيّين اللّجوء لشيوخ التّصوّف لأخذ المشورة وخاصّة في الحروب، كما كانت حاسمة في الصّراع داخل البلاط نفسه، وكانت الزّوايا والتّكايا حاضنة للجماهير خاصّة زمن الأزمات والحروب، وساعدت في استمرار الدّولة، بحيث صار هناك تحالف ضمنيّ بين السّلطة والتّصوّف. وقد حاول بعض السّلاطين الحدّ من نفوذها دون جدوى، فقد حظر السّلطان محمود الثّاني البكتاشيّة بعد إلغاء الانكشاريّة سنة 1826م، وكان يعتقد أنّها ستذوب في الطّريقة النّقشبنديّة بعد نقل ملكية الزّوايا إليها، ولكن عادت إلى سابق عهدها في عهد السّلطان عبد العزيز، وتمّ إعادة إعمارها على يد أمّه، كما لعبت زوايا البكتاشيّة دورا هامّا في حركة المعارضة ضدّ السّلطة العثمانيّة مع حركة تركيا الفتاة، فتحوّلت زواياها إلى مراكز لنشطاء هذه الجمعيّة، وكانوا من أسباب خلع السّلطان عبد الحميد الثّاني سنة 1909م والقضاء على الدّولة العثمانيّة، بعدما تحالفوا معها لقرون طويلة، وساندوا قيام الجمهوريّة الجديدة والدّفاع عن قيم العلمانيّة.

5– البكتاشيّة وبناء التّكايا والأضرحة: التّكيّة البكتاشيّة عبارة عن ضيعة كبيرة واسعة فيها قصر ضخم يقيم فيه شيخها، وتضمّ قبورا مزخرفة لرفاة مشايخ الطّريقة والمساهمين في انتشارها، وفيها غرف كبيرة يقيم فيها الدّراويش منقطعين للعبادة والذّكر، وفيها حظائر للمواشي من الأغنام والأبقار، وتحصل على

[1] – انظر: أحمد بري، ممدوح غالب (2019م)، تاريخ التّصوّف في الدّولة العثمانيّة: الطّريقة البكتاشيّة نموذجا، المركز الدّيمقراطي العربي للدّراسات الإستراتيجيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة، برلين، ألمانيا، ط1: ص59.

[2] – انظر: عبّاس، باسم حمزة (2018)، "التّطوّر التّاريخي للطّريقة البكتاشيّة منذ القرن الرّابع عشر الميلاديّ وحتّى الوقت الحاضر"، مجلّة دراسات تاريخيّة، كلية التّربيّة للبنات، جامعة البصرة، العدد24، حزيران 2018م، ص56.

احتياجاتها من المال من تبنّي الطّريقة في البلد الّذي تتواجد فيه، وعلى المنتسب القيام بواجبات عديدة في خدمة التكية منها خدمة الدّراويش والضّيوف، ويتعيّن على المنتسبين البيعة للشّيخ والالتزام بطقوس معيّنة تجاه الشّيخ والقبر وغيرها[1]. وتنافس سلاطين آل عثمان على بناء الزّوايا والتّكايا والقبور البكتاشيّة لأنّها مصدر قوّتهم.

6- الوقف: جُعلت لكثير من الأضرحة أوقاف خاصّة بها بالموازاة مع الزّوايا والمساجد والكتاتيب والفقراء وعابري السّبيل، مع أخذ العلم أنّ الزّوايا كانت تُنسب في معظم الأحيان إلى الأضرحة الموجودة فيها؛ كزاوية عبد الرّحمن الثّعالبي والولي دادة في الجزائر، وجامع سيدي بومدين بتلمسان، وفي سنة 1830م/1246هـ أحصى ديفوكس بمدينة الجزائر ثلاثة عشر جامعا ومائة وتسعة مساجد واثنان وثلاثون ضريحا أو قبّة واثنا عشر زاوية، وبالتّالي نرى حجم تأثير الأضرحة في تكوين المؤسّسة الدّينيّة في الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي، وللوقف أهمّية بالغة في الحياة الدّينيّة والعلميّة والاجتماعيّة، بحيث كانت مصدرا رئيسيا للدّخل لصالح الدّولة والمجتمع، وتمثّلت هذه الأوقاف في الدّور والأراضي والحقول والبساتين والمحلّات التّجاريّة[2]، وحتّى الأغراض الخاصّة والأواني والحلي، مثل ضريح عبد الرّحمن الثّعالبي بالجزائر؛ فقد أوقفت عليه السّيّدة دومة بنت محمّد أواني طبخها النّحاسيّة، على أن يكون إصلاح هذه الأواني من مدخول آخر تملكه، وكثير من الأوقاف الّتي جلت للمساجد صارت أضرحة لأصحابها، منهم الباي حسن المعروف بوحنك باي قسنطينة الّذي أنشأ سنة 1156هـ الجامع الأخضر وأوقف عليه عدّة أوقاف، وقد دُفِن فيه بعد موته سنة 1167هـ[3]، وقد ألحقت جميع هذه الأوقاف أو معظمها –وخاصّة أوقاف الحرمين– بمصالح الدّولة الفرنسيّة بعد الاحتلال.

7- الزّيارة: كانت زيارة الأضرحة في الأصل فرعا عن زيارة المقابر، وهي مستوحاة من الثّقافة الدّينيّة، وقد وُضعت في أحكامها كتب؛ منها كتاب: (ربح التّجارة ومغنم السّعادة فيما يتعلّق بأحكام الزّيارة)، ونُظمت قصائد كثيرة في زيارة الأضرحة للتّبرّك والاعتبار والحضّ عليها؛ منها سينيّة ابن باديس أو (النّفحات القدسيّة) لحسن بن باديس يقول في مطلعها[4]: [الطّويل]

أَلَا صِلْ إِلَى بَغْدَادَ فَهْيَ مُنَى اَلنَّفْسِ   وَحَدِّثْ بِهَا عَمَّنْ ثَوَى بَاطِنَ اَلرَّمْسِ

وهي في مدح الشّيخ عبد القادر الجيلاني دفين بغداد.

وتُنسب قصيدة للشّيخ عبد الرّحمن الأخضريّ البطنيوسي (ت953هـ) في استحثاث الهمم لزيارة ضريح سيدي خالد بن سنان العبسي، ومطلعها: [البسيط]

---

[1] – عبّاس، باسم حمزة (2018)، "التّطوّر التّاريخي للطّريقة البكتاشيّة منذ القرن الرّابع عشر الميلاديّ وحتّى الوقت الحاضر"، مرجع سابق، ص62، 63.

[2] – انظر: سعد الله، مرجع سابق، ج1 ص227 وما بعدها.

[3] – انظر: سعد الله، مرجع سابق، ج1 ص236.

[4] – انظر: المرجع السّابق، ج1 ص88، 89.

سِرْ يَا خَلِيلِي إِلَى رَسْمٍ شُغِفْتُ بِهِ   طُوبَى لِزَائِرِ ذَاكَ اَلرَّسْمِ وَالطَّلَلِ
جَلَّتْ شَوَاهِدُهُ عَزَّتْ دَوَائِرُهُ   مَا خَابَ زَائِرُهُ فِي اَلصُّبْحِ وَالْأَصَلِ

ولمّا مات الأخضري نفسه جُعلت له قبّة للزّيارة ودعا علماء الوقت إلى زيارة قبره أمثال مصطفى بن عزّوز البرجي وعلي بن عمر الطّولقي والمختار الجلالي وعبد الحفيظ الخنقي[1].

وألّف بركات بن باديس كتابه: (مفتاح البشارة في فضل الزّيارة)، تحدّث فيها عن نبوّة خالد بن سنان العبسيّ، وأدرج قصيدة الأخضريّ المتقدّمة وغيره، وألّف محمّد ساسي البوني في فضائل الزّيارة، وربّما يقصد به زيارة الأضرحة[2].

وارتبطت الزّيارة بالتّبرّعات الّتي يعطيها الزّوّار للأضرحة والزّوايا، وأنّه بقدر كرامات الولي والمرابط يكون سخاء الزّائرين وكثرتهم، كما شاع عن زاوية الولي داده بالعاصمة الّذي أنقذ العاصمة من السّقوط سنة 1541م على يد شارلكان، وقد كان لها أوقاف هامّة من مزرعة جهة الحراش وغيرها، وبعد الاستعمار حُوّل جزء منها إلى كنيسة فيما نُقلت رفات الضّريح إلى زاوية عبد الرّحمن الثّعالبيّ[3]، ومنها نقل رفات قبّة سيدي منصور وأفراد عائلته إلى مقبرة زاوية الثّعالبي لإخلاء المكان، وتذكر التّقارير أنّه قد تمّ ذلك على يد جنود الزّواف.

8- الممارسات والطّقوس:

- **طلب الشّفاء والبركة:** يذكر ابن حمادوش في (رحلته) أن زاوية عبد الرّحمن الثّعالبيّ الّتي تأسّست حول ضريحه صارت مجمعا للذّكر وإقامة المولّديات وإلقاء الموشّحات الدّينيّة، وأصبحت مقصد الزّوّار وملتقى الدّارسين ومجمع طلّاب البركة والشّفاء[4]. وكان يقصد النّاس بعضها تبرّكا وطلبا للشّفاء وقضاء الحاجات كزاوية سيدي عبد القادر بالجزائر يكثر النّسوة زيارتها، وكان العامّة يزورون مثلا زاوية سيدي علي الزّواويّ لاعتقادهم أنّ ماءها يُبرئ من العقم والحمّى ويحفظ الأولاد، وكذلك قبّة سيدي عبد القادر كان بها بئر تعتقد العامّة أنّ عبد القادر الجيلاني حفرها عندما زار الجزائر، وأنّ ماءه يشفي من الأمراض والمسّ ونحوه، وبها ضريح كان النّاس يزورونه ويتوسّلون ويتبرّكون فيه، وقد سقطت نخلته سنة 1965م، وهدّمت السّلطات الاستعماريّة القبّة سنة 1866م[5]، وقد ذكر دوتي مجموعة من الأضرحة يشترك فيها المسلمون واليهود بالمغرب الأقصى وتلمسان وتونس، فقد ذكر مثلا وليا في جبال فاس يسمّى أصقرو، يشترك البرابرة واليهود في تقديسه، وأنّه كان موجودا قبل الإسلام، تقصده النّساء البربريّات واليهوديّات الرّاغبات في الإنجاب، يصعدن إلى أعلى الجبل على أرجلهنّ، وهذا ما يحدث بالضّبط عند سيدي يعقوب

---

1 - انظر: المرجع نفسه، ج1 ص 502، 503.

2 - انظر: المرجع نفسه، ج2 ص138، 139.

3 - انظر: المرجع نفسه، ج5 ص115، 116.

4 - انظر: المرجع نفسه، ج1 ص92. وج1 ص270.

5 - انظر: المرجع نفسه، ج5ص132، 133.

بتلمسان[1]، وفي قمّة جبل بوزقزة المطلّ على خليج الجزائر ينتصب ضريح لالة تامزقيدة يقصده النّسوة اللّواتي يعانين من العقم لطلب الخصوبة والإنجاب[2].

– **طلب النّصر والحماية:** أسّست الزّاوية في الأصل وما ارتبط بها من ثقافة الولاية والرّباط لأجل الجهاد ومناهضة أعداء الدّين وحماية الثّغور مع أداء واجب العبادة والتّعليم، ولعبت دروا كبيرا مثلا في إيقاف الغزو الإسباني خاصّة بغرب الجزائر كزاوية المجاجي ودورها في حماية ثغر تنس، بينما كانت زوايا معسكر ومازونة وغيرها في حالة رباط دائم ضدّ الإسبان، وقامت بالدّور الرّئيسيّ في فتح وهران سنتي 1119هـ و1205هـ، كان غزاة العثمانيّين في البحر قبل القيام بالغزو يدخلون إلى زاوية ولي دادة أو ضريح سيدي بتقة (أبو التّقى) وغيرهما من القباب سواء في الجزائر العاصمة أو في في غيرها؛ طالبين من الأولياء البركة والنّصر[3]. وكان اعتقاد العامّة في الأضرحة أنّها تحمي البلاد والعباد من الغزو الأجنبيّ، وأنّ سبب إخفاقهم في دخول مدينة الجزائر إنّما هب بركة الأولياء أمثال الولي داده وسيدي الجودي وسيدي عبد الرّحمن وسيدي جمعة وسيدي الكتاني والرّجال السّبعة[4] وغيرهم من حماة البلاد وحراسها، وتذكر الأسطورة الشّعبيّة أنّه ببركة الولي داده بالعاصمة هبّت عاصفة هوجاء أثناء غزو الملك شارلكان للجزائر سنة 1541م، ومن ثمّة أنقذ الولي دادة العاصمة من الاحتلال، ومحمّد التّواتي في بجاية كانت ملجأ للمجاهدين ضدّ الغزو الإسبانيّ، ولمّا مات الشّيخ سقطت المدينة في أيدي الغزاة، وحرصوا على إرضائهم وزيارتهم، وتجنّبوا إغضابهم، فمن الحكايات الّتي تُحكى أنّ سبب سقوط مدينة وهران في يد الإسبان هو أنّ الشّيخ محمّد الهواري قد نقم على أهلها فرفع حمايته عنها ودعا على أهلها، وكذلك الأمر بالنّسبة للشّيخ أحمد بن يوسف الملياني (ت931هـ) فتذكر الرّوايات أنّ الزّيانيّين –في أواخر عهدهم– حاولوا إحراقه، فكانت النّار عليه بردا وسلاما، ثمّ سجنوه وبعد خروجه من السّجن دعا عليهم بتخريب ملكهم عندها كان العثمانيّون يخطّطون للاستيلاء على تلمسان، وكان الملياني من أنصارهم[5]، ولذلك كان ظهور العثمانيّين بالجزائر ونفوذ كلمتهم يعتمد على المرابطين وشيوخ الزّوايا أساسا، وعلى هذا الأساس كانت سياستهم في استرضائهم وإعفائهم ممّا يجب على العامّة وتعظيم مكانتهم بالاهتمام ببناء القباب والأضرحة عليهم بعد مماتهم. وقد جعلوا لبعضهما الحرمة والحِمى فلا يمسّ طيرها ويزجر ساكنها ولا

---

[1] – انظر: دوتي، إدموند، الصلحاء، ص89.

[2] - voir: Douté, Edmond, les marabouts, Alger Livres Editions, Alger, 2008, p72.

[3] – انظر: المرجع نفسه، ج 1 ص189، 190.

[4] – يُذكر أنّ مدينة مرّاكش أيضا تُسمّى بمدينة سبعة رجال، أي سبعة أولياء يحمونها ويحرسونها من كلّ مكروه، وخاصّة الغزو الأجنبيّ؛ منهم سيدي بلعباس، واسمه أبو العبّاس أحمد بن جعفر الخزرجي السّبتي (ق 6 هـ)، وتقول الأسطورة أنّه ظهر في معركة وادي المخازن أو الملوك الثّلاثة سنة 1578م على فرس رمادية يستحثّ النّاس على القتال ويشجّع المحاربين، وسمّون أيضا بموالين –أي أهل أو أصحاب– البلاد –مفرده مولى–. (انظر: دوتي، الصّلحاء، ص 82، 83).

[5] – انظر: المرجع نفسه، ج 1 ص461، 464، 465.

يُبطش باللّاجئ إليها والهارب من عدوّه ولا يقربه سلطان، كزاوية سيدي عبد الرّحمن الثّعالبي والولي داده، وكان الثّوار في نواحي قسنطينة لا يمسّون من يلجأ إلى زاوية أولاد عبد النّور، وكان محيي الدّين شيخ الطّريقة القادريّة بزاوية القيطنة يصف زاويته بأنّها كمقام إبراهيم الخليل –عليه السّلام– من دخلها كان آمنا[1]. وذكروا أنّ الباي مصطفى بوشلاغم أمر أحد الجنود بإلقاء القبض على رجل لجأ إلى قبّة سيدي الهواري فانتفخت بطن الجندي، ويُحكى أنّ الشّيخ عبد الرّحمن اليعقوبي دفين ندرومة أنّ زار ضريح سيدي بومدين وسأله تغيير دولة الأتراك من آل يافث لكثرة جورهم، وأنّ أبا مدين أجابه من قبره قائلا: "إن قبلتها يا عبد الرّحمن نعطها لك" فأبى، فقال له أبو مدين: "اصبر، في هذا الوقت لم نجد من يصلح لها ويتكفّل بها، وسيأتي الله بالفرج"[2]. ومن مظاهر تعظيم وحرمة الأضرحة والقباب الحلف بها وعندها، وبها تتجلّى كرامة الوليّ، فإنّ الحلف كذبا عنده يترتّب عليه تحصل به مصائب في بدنه كالإعاقة ونحوها أو في أهله وماله بالهلاك وقلّة البركة، والحكايات في هذا كثيرة متوارثة شفويا ومنها ما دُوّن وكُتب، "فعندما حلف أحدهم كذبا على قبر صالح كُسر طرفٌ من أطرافه لدى خروجه منه، فيما كان يسقط أحدهم أرضا ولا يفيق حتّى يكفّ عن بعض الشّرور الّتي اقترفها من قبل، وأمّا أحدهم فقد رام الدّخول إلى مغارة أحد الصّلحاء، وما إن دنا منها حتّى رأى كأنّ بابها يضيق عليه حتّى لا يكاد يمرّ، بينما عبرها رفاقه من المصدّقين بسهولة ..."[3]. وقد خصّص إدموند دوتي مبحثا في الصّلحاء الّذين تنبّأوا باحتلال فرنسا للجزائر، فقد تنبّأ مثلا سيدي محمد بن بورقعة قبل سنوات من الاحتلال باستبدال المستعمر من الأتراك إلى المسيحيّين، وتنبّأ أيضا سيدي الحاج عيسى من الأغواط بالاحتلال الفرنسيّ، ومن قبّته بدأت مدافع الفرنسيّين في احتلال الأغواط، وتنبّأ عبد السّلام بن مشيش باحتلال الإسبان لوهران وتطوان وغيرها من التّنبّؤات الّتي تُنسب إلى الصّلحاء وتُعدّ من مناقبهم وكراماتهم[4].

كما كانت بعض الأضرحة مكانا للتّجارة ومستوعات للسّلع والبضائع، توضع فيها السّلع والمدّخرات، لأنّها أماكن محترمة جدّا ولا يمكن سرقتها، مثلا ضريح سيدي خالد بدلّس على شاطئ البحر يستعمل لمثل هذه الأغراض، "وكان الدلسيون يأتون إليه بالزّوارق محمّلين بالملح ويتركونها به إلى أن ينزل قبايل الأعالي المجاورة من الجبال ليأخذوا الملح ويضعوا في مقابله الشّعير والقمح، ثمّ يأتي الدّلسيّون بعد ذلك لأخذها بدورهم"[5].

– **طقوس الاستمطار**: من الطّقوس المتوارثة في شمال إفريقيا هي طقوس طلب المطر عند الجفاف، الّتي لاحظ بعض الباحثين الأركيولوجيّين أنّها قديمة جدّا، فيذكر مثلا روني باصي أنّ بعض المغارات

---

1 – انظر: المرجع نفسه، ج 1 ص271.

2 – ابن عسكر، دوحة النّاشر، ج1 ص285.

3 – دوتي، إدموند، الصّلحاء، مرجع سابق، ص31.

4 – انظر: المرجع السّابق، ص 81، 82.

5 – المرجع نفسه، ص131.

والكهوف كانت مخصّصة لذلك، ففي الكناري –باعتبارها جزءا من ثقافة شمال إفريقيا– كانت هناك مغارة الأستيهطيقا مخصّصة للخلوة خلال فترات الجفاف، لمن يذهب كي يتضرّع للإله، حين يظهر له يمنحه خنزيرا يقدّمه لقومه دليلا على قبول صلواته، على أنّ الكثير من الممارسات الطّقوسيّة جاءت من الشّرق عن طريق الفينيقيّين[1]. فيما تذهب بعض الطّقوس إلى تقديس ظاهرة الطّيف، ويربطون بها ممارسات للاستسقاء، وهي ظاهرة قوس قزح؛ في واد ريغ تسمّى أبشّي abechchi، وفي هراكطا أبْقّاس abggas (حزام)، وعند زواوة ثيسليث ب ونزار thislith b ouanzar، وعند آيت بوتعيو بأرزو ثيسريث ن ونزار thisrith n wanzar، وفي آيت يزناسن ثاسليت نونزير thaslit n ounzir، ومعناها عروسة المطر، وعند بني مناصر ثاسليث ن أوجنّا thaslith n oujenna؛ أي عروسة السّماء، وفي العامية كذلك يقال له عروسة السماء، ويربطون به خرافات تسمّى عرس الذّيب. وأنزار anzar هو المطر، كائن مذكّر، وفي الطّقوس الممارسة للاستمطار يذهب أبناء جرجرة زمن الجفاف من منزل إلى منزل، وهم يغنّون:

أنزار، أنزار

يا ربّ أروينا إلى الجذور.

وفي الميزاب يغنّي الأطفال وهم يدوسون الحبوب:

أعطنا يا ربّ ماء أنزار

وفي ورقلة يشخّصونه بـ (أَمْزار).

وبالتّالي فقوس قزح يرتبط بخطيبة للمطر، وهذه الطّقوس لها صلة بأغلب السّاكنة في شمال إفريقيا عربا وأمازيغا من عين الصّفرا وغيرها بالجنوب إلى تلمسان ومازونة وغيرها، تُختار ملعقة من خشب (آغونجا agheundja) يتمّ إلباسها بالخرق بحيث تصير تشبه شكل الدّمية، تمثّل خطيبة أو عروسة، تسمّى غونجا، ويتمّ تطوافها بأبّهة على مقابر الأولياء المحلّيّين، مع غناء مقاطع تتنوّع حسب المناطق، كما في ما يلي:

غونجا غونجا كشفت راسها؛

يا ربي ستبلّل أقراط أذنيها؛

السّنبلة عطشت؛

امنحها تشرب يا سيدنا.

أمّا في تيط بتوات، فيفعلون نفس الشّيء ويخرج الجميع رجالا ونساء وأطفالا، بينما تحمل الملعقة –الّتي كُسيت بملابس نسائيّة– فتاة شابّة وهم يردّدون:

أغونجا، إميرجا (يا ملعقة، يا مراعي)

ربي فوّت وقت الحرّ

[1] – باصي، روني، أبحاث في دين الأمايغ، مرجع سابق، ص37.

يا ربي باسم النّبيّ

وفي بعض الجهات في الغوانش (الكناري) يسبق ذلك تصويم العباد وربّما الدّواب، وفي تينيريف يفصل الأبناء عن أمّهاتهم ليثير صرختهم شفقة السّماء[1]. فيما تذهب بعض الطّقوس إلى تقديم البشر قرابين في زمن الطّواعين إلى آلهة جوبيتر طارتاريوس.

وارتبطت الكثير من هذه الطّقوس بالسّنة الفلاحيّة، فلا يتمّ الاحتفال في المساجد –بحسب باصي– لكن قرب مقابر الأولياء الشّعبيّين، لأشخاص لا مرئيّين، والاحتفال الأساسي هو الّذي يهمّ ينّاير، وهو حاسم بالنّسبة للسّنة كلّها، وهناك احتفال خاصّ بلعنصرا أو عيد الما، واحتفال عاشورا، وتشترك كلّها في حياة النّبات أو موته، وهذه الاحتفالات تختلط فيها عدّة ديانات قديمة مرّت على شمال إفريقيا فينيقيّة وإغريقيّة ورومانيّة وأمازيغيّة وإسلاميّة[2].

– **الموالد والمناسبات:** كانت للزّوايا والأضرحة دور كبير في المناسبات الدّينيّة، وعلى رأسها المولد النّبويّ الشّريف، كان الوكلاء فيها يعدّون الطّعام يحضرها الخاصّة والعامّة، على اختلاف بين المؤسّسات، فقد خُصّص بعضها للأشراف، وبعضها لعابري السّبيل، وبعضها للمهاجرين الأندلسيّين، وكان بعضها واسع الشّهرة ثريّ المائدة، كزاوية سيدي امحمّد بن علي المجاجي وزاوية القيطنة كانتا تطعم الأعداد الكبيرة مع كثرة طلبتها واللاجئين فيها.

– **كرامة الغُراب أو الطّير:** من التّرسبّات الّتي تعتقدها العامّة هو قدرة المرابط أو الوليّ إلى تغيير خلقته إلى غراب أو طير للفرار من عدوّه، أو لحلول النّقمة بمن آذوه أو قتلوه، ويُقدّس المكان ويجعل له ضريحا، فقد قيل إنّ صالح باي مثلا قد بنى قبّة في المكان الّذي قتل فيه المرابط محمّد الغراب بعد أن تحوّلت جثّته إلى غراب مخيف تطيّر منه الباي[3]. ويُحكى أنّ الحاج بكتاش مؤسّس الطّريقة البكتاشيّة لمّا كان في طريقه من خراسان إلى الأناضول تحوّل إلى حمامة ثمّ صعد إلى السّماء حتّى وصل إلى المكان الّذي فيه الملائكة الّذين سلّموا عليه ورحّبوا به، ثمّ نزل إلى قرية صولجية كرايوك ليخبرهم أنّه أتاهم بسلام، لكن هؤلاء الأولياء أرسلوا وليا منهم، وهو تحوّل إلى صقر ليخيفه ويمنعه من دخول البلاد، لكنّ الحاج بكتاش تحوّل في الحال إلى إنسان، وأمسكه من عنقه، وألقاه إلى الأرض، ولمّا أدرك هذا الوليّ قوّة الحاج بكتاش اعتذر منه وقبّل يده، وذهب إلى أصحابه وأخبرهم بما حدث، ولمّا سمعوا بهذه القصّة ذهبوا إليه، وأخذوا اليد منه، ودخلوا طريقته[4].

---

[1] – انظر: المرجع السّابق، ص48–50.

[2] – انظر: باصي، روني، أبحاث في دين الأمايغ، مرجع سابق، ص68.

[3] – انظر: المرجع نفسه، ج1 ص271.

[4] – انظر: حجي، بليدار (1437هـ)، الطّريقة الصّوفيّة البكتاشيّة في ألبانيا عرض ونقد، رسالة ماجستير، كلية الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة، جامعة القصيم، المملكة العربيّة السّعوديّة، ص81.

– **ظاهرة البوقيرين أو تعدّد القِباب والأضرحة:** شاع تعدّد القباب والمشاهد والأضرحة للأولياء والصّلحاء، ممّا جعل العامّة تعتقد أنّ الشّخص الواحد قد يُدفن في أكثر من مكان، وهذا من كراماته ويستدعي تعظيمه وزيارته، ويعدّ أيضا من مآثره الّتي يتفاخر المنتسبون إليه بها فيضيفون له هذا اللّقب أي (بوقبرين) للدّلالة على عظم شأنه وبُعد صيته، فقد نُسب للشّيخ عبد القادر الجيلاني أكثر من ضريح، حتّى سُمّي بطير المراكب، وأغلبه القباب المنسوبة إليه في الجبال العالية، وله أسماء كثيرة مثل: الجيلالي (الجيلاني)، وقويدر، وجلول، والبغدادي، وبوعلام، وكما هو معلوم فقبره في بغداد، ولكن في الجزائر نُسبت إليه الكثير من الأضرحة في بجاية والجزائر ووهران وغيرها[1]؛ لمكانته عند أهل المغرب وخاصّة الجزائر، فقد كان الحجّاج يقصدونه بالزّيارة والهدايا والأوقاف عند عودتهم من طريق الحجّ، وكانت طريقته منتشرة في عموم البلاد؛ واشتهر بلقب "مولى بغداد"، ومنهم شيخ الطّريقة الرّحمانية امحمّد بن عبد الرّحمن الأزهريّ، يُنسب له قبرٌ بالحامة في الجزائر، وقبر ببلده آيث إسماعيل بتيزي وزو، ونذكر بأنّ قبّته هُدّمت مرّتين أثناء المقاومة الشّعبيّة للاحتلال الفرنسيّ، الأولى سنة 1857م، إثر مقاومة الحاج عمر، وكان إعلان الجهاد عند قبّته، وكانت نهايتها احتلال زواوة، والمرّة الثّانية كانت سنة 1871م أثناء ثورة الشّيخ امحمد امزيان الحداد شيخ الرّحمانيّة في صدّوق، وكان من نتائجها إطلاق العنان لحملات التّبشير الأولى على أرض ناث إسماعيل بين سنوات 1885–1885م[2]، بينما كانت قبّته تُزار بالحامة في العاصمة في مختلف المواسم والمناسبات. ومن تعدّد الأضرحة أو القباب أيضا ضريح سيدي معمر أبي العالية –من أحفاد أبي بكر الصّدّيق –رضي الله عنه– ناحية تنس، يُنسب له ضريح في معاطن حميس وفي تنس، وفي غليزان، إضافة إلى الضّريح الأصلي بالأبيض سيد شيخ، ويسمّى بضلعة سي معمر، وفي ناحية تنس له عُرف يُنسب إليه؛ فتقول العامّة معروف سيدي معمر بومكحلة، وهو تقليد لتخفيف المهور، فأتباع سيدي معمر في القديم بحسب التّقارير المكتوبة والرّوايات الشّفوية لا يقدّمون سوى عشرين فرنكا (ربعة دورو بحساب العامّة)، والمرأة لا تُزيّن ولا تُحنّى ولا تُقلّد بالجواهر تجري ليلة الزّفاف في غرفة خالية على حصير موضوع على الأرض، ووسادة قربة من جلد الماعز الأسود مملوءة بحبوب الشّعير ... وأوّل مولود يُسمّى معمر والمولودة تُسمّى العالية، توجد قبّة سيدي معمر في بلدية عمّي موسى بغليزان، ويُدعى بومكحلة، لأنّ بندقيته الموضوعة في القبّة، وكما يقولون تنطلق عند اقتراب الحفلة، وأنشئت له عدّة أضرحة خاصّة في الخط بين شلف وتنس، لكنّ القبّة الّتي دُفن فيها تقع في الأحلاف جهة وادي رهيو، تذكر الرّوايات أنّ سي معمر أبا العالية قدم من الجنوب معلّما للصّبيان في قبيلة حميس جهة تنس،

---

1 – هذه الظّاهرة لاحظها المستشرق جولدزيهر، ليس في المغرب الكبير فقط بل في الشّرق الإسلامي أيضا، فقد لاحظ وجود أضرحة تُنسب إلى صحابة ببلدان لم يثبت أنّهم قد دخلوها، مثل وهب بن منبّه بتلمسان، أو سيدي يوشع أيضا، وهو نبيّ بني إسرائيل من أصحاب موسى –عليهم السّلام–، ويعتقدون أنّ الجدار المذكور في سورة الكهف هو جدار تلمسان وغيرها. (دوتي، الصّلحاء، ص86).

2 – انظر: المرجع نفسه، ج5ص124، 125.

واستقرّ بها مدّة معلّما للقرآن، وزوّج إحدى بناته الّتي تُدعى العالية بمهر بسيط جدّا، وإبّان عودته لعائلته في الجنوب أوصى زوجته الّتي كانت حاملا أن تسمّي ابنها المولود معمر، وهذا ما حدث، بقي الطّفل في حضانة أمّه، وتلقّى دروسا لامعة وعُرف بقدراته الخاصّة على ذلك، ذات يوم وجد سلاحاً ناريّا فأراد منحه لأحد أساتذته، فأوصاه هذا الأخير بالاحتفاظ به لأنّه قد يكون مصدر بركة، لما كبِر وصار شخصيّة دينيّة يُعتدّ بها أسّس المهر المحدود للزّواج، واشتهر باسم سيدي معمر بومكحلة[1]، وعليه فيكون الضّريح الأصلي ناحية البيض ضريح سيدي معمر الأب، بينما القباب المنتشرة بين غليزان والشّلف وتنس هو قباب سيدي معمر الابن، على ما في هذه الرّوايات من الأساطير والخرافات إلّا أنّها تحمل جزءا من الحقيقة، لأنّه تُشكّل سمة ثقافيّة بارزة إلى اليوم في هذه المناطق التّابعة لهذا العرف أو المعروف.

– **الدّفن في جوار الأضرحة:** ومن الظّواهر الّتي تتكرّر بجوار الأضرحة هي دفن العلماء والصّلحاء تبرّكا بصاحب الضّريح، لذا نجد أنّ الكثير من الأعيان دُفنوا بجوار هؤلاء الصّلحاء، بل نجد أنّ الكثير من المقابر تكوّنت وتوسّعت حول الأضرحة، فكان الضّريح مركز المقبرة تحيط به القبور من كلّ جهة، كلّ ذلك تفاؤلا أو تشفّعا بمجاورته، فقد دُفن مثلا حول ضريح عبد الرّحمن الثّعالبيّ الكثير من الأعيان والوجهاء، منهم مثلا الحاج أحمد باي، وبعض أفراد عائلة حمدان خوجة[2]، ومنهم على سبيل المثال أيضا الشّيخ محمّد الأرناؤوط (ت1865م) الحنفي المدرّس والمفتي بالجزائر أيّام بداية الاحتلال الفرنسي[3]، ومنهم أيضا القاضي أحمد المجاهد بوطالب دُفن بجوار ضريح سيدي السّعيد الزّواوي بسطيف سنة 1890م[4]. ومنها أيضا أن تنتشر القباب وأضرحة الصّالحين حول الضّريح المركز مثل ضريح الشّيخ عبد الرّحمن الثّعالبي، وهو شيء طبيعيّ بالنّظر لمكانة الثّعالبي –رحمه الله–، وبالنّظر للأوقاف الهائلة الّتي كانت تحيط به، واستولى الاستعمار الفرنسيّ على تلك الأوقاف وضمّت إلى أملاك الدّولة الفرنسيّة سنة 1848م، فقد وجد الاستعمار الفرنسي الكثير من القباب والأضرحة والجبانات والمساجد المحيطة به فقاموا بهدم العديد منها، وأصبح جزء منها بناية لثانوية الأمير عبد القادر[5]، وهناك من القباب من اشتراها المعمّرون ليتمّ تحويلها إلى دار سكناها، كقبّة سيدي المسعود بالعاصمة اشتراها مقاول فرنسي يقال له جيلي (Geylers) وهو صهر المستشرق ديفوكس، ومنها قبّة سيدي علي الفاسي[6]، وبعضها أزيل لشقّ الشّوراع والطّرقات.

---

[1] – انظر: خليفة بن عمارة، سيرة البوبكريّة (أجداد أولا سيدي الشّيخ)، تاريخ وهجيوغرافية الجنوب الغربي الجزائري (القرن 14، 15، 16)، ترجمة: محمّد قندوسي، مكتبة جودي مسعود، وهران، ط2، 2002م، ص 29 وما بعدها.

[2] – انظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، المرجع نفسه، ج5ص122، 123.

[3] _ انظر: المرجع نفسه، ج3 ص74، 75.

[4] – انظر: المرجع نفسه، ج4 ص485.

[5] – انظر: المرجع نفسه، ج5ص122.

[6] – انظر: المرجع نفسه، ج5ص128.

- نتائج البحث:

- ساهم الضّعف السّياسي والاجتماعي العامّ في العالم الإسلامي، وخاصّة بعد سقوط بغدا وبعدها الأندلس في انتقال المرجعيّة الدّينيّة والسّياسيّة من سلطة الحاكم والسّلطان إلى سلطة الشّيخ والرّجل الصّالح، وانتقلت العلاقة من الحاكم والرّعية إلى علاقة الشّيخ والمريد.

- ساهم الغزو الأجنبي وخاصّة الإسباني على سواحل الغرب الإسلامي وبالإضافة إلى الاضطرابات والصّراعات الدّاخليّة إلى إعادة تشكيل المجتمع، وبالتّالي ضعف سلطة العصبيّة القبليّة بالموازاة مع ضعف سلطة الحاكم والأمير على حساب تنامي سلطة الشّيخ والعصبيّة للطّريقة، ويقابلها البحث عن البديل الّذي وجدته العامّة في شيوخ الطرق الصّوفيّة، وصارت الزّاوية المؤسّسة الدّينيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة محلّ لجوء العامّة والخاصّة.

- ساهمت الزّوايا والتّكايا في نشوء الدّولة العثمانيّة واتّساع نفوذها بقدر اتّساع نفوذ الطّريقة البكتاشيّة، وصارت سلطتها موازية لسلطة الباب العالي، تلتقي معه أحيانا وتتصارع معه أحيانا أخرى.

- عملت الدّولة العثمانيّة على الاستثمار في الطّرق الصّوفيّة لبسط نفوذها، وكانت القناة الوحيدة للتّواصل مع الرّعايا في مختلف الظّروف سواء في الولاءات والتّحالفات، أو في الحروب والصّراعات، وكانت الطّريقة البكتاشيّة نواة آليات الحكم عند العثمانيّين.

- وكان من نتيجة تعظيم الشّيوخ والصّلحاء انتشار الزّوايا والتّكايا، وما يلزمها من فروض الولاء والطّاعة، وما يترتّب عليها من طقوس التّبرّك والزّيارات، ثمّ انتشار الأضرحة بشكل كبير، وخاصّة في المناطق الّتي تعدّ بؤر صراعات وتوتّرات وتهديدات أجنبيّة، وهو ما نلاحظه في الغرب الجزائري؛ إذ كلّما اتّجهت غربا ازداد عدد الزّوايا والأضرحة، لأنّها كانت دائما تحت الصّراعات والتّهديد الإسباني خاصّة طيلة العهد العثمانيّ.

- شغلت كرامات الأولياء ومناقبهم كتب تراجم القرن السّابع الهجريّ وما بعده، وصارت معيارا لانتقاء الأعيان والاهتمام بهم، وإن كانوا من الأمّيّين، وهو يؤشّر إلى بداية انتشار التّصوّف الفولكلوريّ والطّرقيّ وتعميمه على كلّ طبقات المجتمع، كما يعبّر عن ضعف سلطة الدّولة والقبيلة، واستعاضتها بسلطة الوليّ والطّريقة؛ أو ما اصطلحنا عليه من انتقال المركزيّة من سلطة السّلطان إلى سلطة الوليّ، لقضاء حوائج النّاس والدّفاع عنهم ومواجهة الأخطار الّتي كانت تحيط بهم، وخاصّة بعد سقوط الأندلس ثمّ مدن ساحل الغرب الإسلامي كبجاية ووهران والعرائش وغيرها.

- تعدّدت مظاهر الاعتقاد في الصّلحاء والأضرحة، وكان نتيجة لذلك بروز مجموعة من الظّواهر، ومنها ظاهرة تعدّد الأضرحة والقباب، وكلّما ارتفعت قيمة الرّجل الصّالح كثُرت معه القباب والمشاهد والأضرحة المنسوبة إليه، كمشاهد سيدي الشّيخ ناحية البيض، وسيدي معمر ناحية تنس وغليزان.

المصادر والمراجع:

1-ابن عسكر، أبو عبد الله محمّد بن علي بن مصباح الحسنيّ الشّفشاوني، دوحة النّاشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق: محمّد حجي، مطبوعات دار المغرب للتّأليف والتّرجمة والنّشر، ط2، 1977م.

2-ابن مريم، محمّد بن محمّد بن أحمد المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، صحّحه واعتنى به: محمّد بن أبي شنب، المطبعة الثّعالبيّة، الجزائر، 1908م.

3-أحمد بري، ممدوح غالب (2019م)، تاريخ التّصوّف في الدّولة العثمانيّة: الطّريقة البكتاشيّة نموذجا، المركز الدّيمقراطي العربي للدّراسات الإستراتيجيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة، برلين، ألمانيا، ط1.

4-باصي، روني، أبحاث في دين الأمازيغ، ترجمة وتقديم: حمّو بوشخار، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، المغرب، ط1، 2012م.

5-بن عمارة، خليفة، سيرة البوبكريّة (أجداد أولاد سيدي الشّيخ)، تاريخ وهجيوغرافية الجنوب الغربي الجزائري (القرن 14، 15، 16)، ترجمة: محمّد قندوسي، مكتبة جودي مسعود، وهران، ط2، 2002م.

6-حجي، بليدار (1437هـ)، الطّريقة الصّوفيّة البكتاشيّة في ألبانيا عرض ونقد، رسالة ماجستير، كلية الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة، جامعة القصيم، المملكة العربيّة السّعوديّة، ص81.

7-دوتي، إدموند، الصّلحاء (مدوّنات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التّاسع عشر)، ترجمة: محمّد ناجي بن عمر، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، المغرب، 2014م.

8-ديفوكس، ألبير، المؤسّسات الدّينيّة في مدينة الجزائر، الجزائر، 1878م.

9-سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998م.

10- عبّاس، باسم حمزة (2018)، "التّطوّر التّاريخي للطّريقة البكتاشيّة منذ القرن الرّابع عشر الميلاديّ وحتّى الوقت الحاضر"، مجلّة دراسات تاريخيّة، كلية التّربيّة للبنات، جامعة البصرة، العدد24، حزيران 2018م.

11- هويدي، يحيى، تاريخ الفلسفة الإسلاميّة في القارّة الإفريقيّة، القاهرة، 1966م.

12-BENAMARA, Khelifa, La SAGA des Boubekria (Ancêtres des Ouled Sidi Chikh), Histoire et Hagiographie du sud-ouest algérien (14e, 15e et 16 siècles), Librairie Djoudi Messaoud, 2ème édition, 2002.

13-Douté, Edmond, Les Marabouts, Notes sur l’Islam dans la Berbérie Musulmane, Editions Alger livres, Alger, 2008.

14-GOLVIN, Lucien, la mosquée (ses origines, sa morphologie, ses diverses fonctions, son rôle dans la vie musulmane, plus spécialement en Afrique du Nord), Alger-livres éditions, Alger, 2013.

15-Harris, Tafilet the narrative of a journey of expolaration in the Atlas mountains and the North- west Sahara, Londres, 1895.

16-GSELL, Stéphane, Croyances bèrbères (introduction à la mythologie des bèrbères), belles-lettres étude, Alger, 2011.